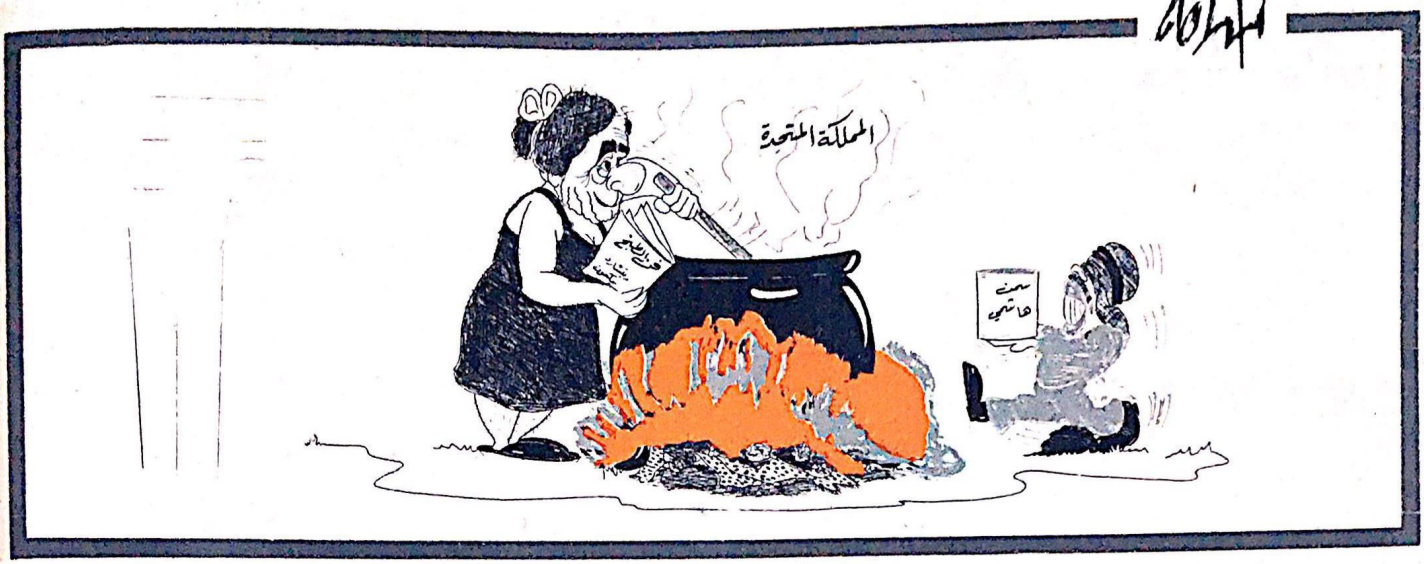

هيكل يُقيس البيض على الباذنجان ليدعو الى المفاوضات

بعد غياب قصير لمحمد حسنين هيكل (يبدو انه احنى راسه خلال ازمة الفريق صادق) في كتابات عن البحر الاحمر ونيكسون وزيارة لندن ، عاد خلال الاسبوع الماضي الى تناول الوضع العربي بشكل مباشر ، مستمدا من ذلك الغياب اندفاعا جديدا لبذل اكبر جهد ممكن من اجل تمييع معالم المعركة ، ونشر الضباب على ما افرزه الصراع من معطيات واضحة ، كل ذلك باسلوب هيكلي مميز يعتمد اكثر التعابير تمسحا بالعصر والعصرية لتمرير اشد المضمونات رجعية واستسلاما ..

وقبل الدخول في مناقشة مع المغالطات النظرية والسياسية التي بني عليها السيد هيكل تحليله المذكور ، لا بد من الوقوف امام نقطة مرت في مقاله ولفتت الانتباه بشكل بارز .. تلك النقطة هي الاسقاط الكامل والمتعمد للاتحاد الثلاثي (اتحاد الجمهوريات العربية) ولسوريا ، من تصنيف هيكل للقوى العربية الفاعلة .. والامر المثير للاهتمام هو ان هذا الاسقاط يحدث في تحليلات السيد هيكل لاول مرة (!!!) ..

لماذا ؟ هل لان الاتحاد الثلاثي بعد كل تنظير هيكل السابق له ، غدا قوة غير فاعلة ؟. ام هل ان الجيش السوري الذي كان يفعمه هيكل في كل تحليل له ، في مواقع القوى الاساسية الفاعلة مباشرة بعد الجيش المصري ، هل ان هذا الجيش لم يعد في نظر هيكل كما كان في السابق ؟ كيف حدث ذلك ؟ انها اسئلة يتركها هيكل دونما جواب .. مبقيا للقارىء ان يبحث عنها ضمن المدح الهيكلي الشديد للحكم في ليبيا ، وما يمكن ان يكون وراء ذلك من سياسات ليبية خاصة داخل الاتحاد الثلاثي (!!) ..

وبمعزل عما تثيره هذه النقطة من اهتمام لان هيكل كما قلنا كان منظر الاتحاد ، وكان في كل تحليلاته يعتمد وجود الجيشين المصري والسوري كقوى الاساس في المعركة ، بمعزل عن ذلك نعود الى موضوعات هيكل النظرية والسياسية ..

ان الامر الاول الذي بني عليه هيكل كل تحليلاته هو بالضبط وعلى حد تعبيره « ان ثمة حركة مذهلة في ايقاعها تجري على سطح الكرة الارضية كله الان ، ولا بد ان نستخلص منها ما لا بد من استخلاصه منها .

ولنا ان نتساءل :

١ ـ ما هو معنى التوافق ـ ولست اقول التواطؤ ـ بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؟

٢ ـ ما هو معنى التقارب بين الولايات المتحدة والصين الشعبية ؟

٣ ـ ما هو معنى خروج بريطانيا من وراء حاجز المانش وافترابها ثم التصاقها ثم اتصالها تماما كجزء لا يتجزأ من اوروبا الغربية .

٤ ـ ما هو معنى الصلات الجديدة بين اليابان من ناحية وبين الصين والاتحاد السوفياتي من ناحية اخرى .

٥ ـ ما هو معنى هذا الحل السياسي الذي يوشك ان يصل اليه الصراع العنيف في فيتنام وهو حل تتعاون فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ؟

٦ ـ ما هو معنى هذه المعاهدة بين المانيا الغربية والمانيا الشرقية ، والتي هي في الواقع تمهيد لمؤتمر امن يجمع اوروبا كلها غربا وشرقا ؟

٧ ـ ما هو معنى هذه الاتفاقيات التي تم الوصول اليها للحد من التسابق على الاسلحة النووية ، وللتعاون الاقتصادي والتبادل التجاري بين السابقين الى التقدم ؟

ما هو معنى ذلك كله وغيره مما تراه عيوننا مبهورة به . لا تتصور تصديقه ولا تقدر على انكاره لانه امامها حياة تتشكل او تشكلت فعلا ؟

ما هو معنى ذلك كله ـ الا ان يكون ظواهر تشير الى ان عصرا جديدا قد حل على هذه الارض يحمل معه نظاما واحكاما تختلف عن عصر سبق كان له نظامه واحكامه وهو الان ينسحب امام الجديد القادم ؟

هل هناك معنى آخر يمكن استخلاصه من هذه الظواهر ؟ » .

هذه السلسلة من الاسئلة التي يطرحها هيكل ليهرب من جوابها ـ عمدا ـ الى نوع من العموميات التي لا تغني ولا تسمن من جوع ، ليس بينها من قاسم مشترك يريد هيكل ان يثبته في ذهن القارىء العربي سوى القول بأن العصر هو عصر « التلاقي بين الاعداء » وان العرب في صراعهم مع عدوهم متخلفون عن هذا العصر ..

لكن هيكل في تساؤلاته عن هذه الوقائع الدولية ، يحاول التعاطي معها بتجريدها من الحقائق الموصلة اليها ، حتى يوحي وكان هذا العصر الذي يصفه هو نوع من القدر المفروض على جميع انواع الصراعات الموجودة في العالم .. آتيا اليها من الغيب .. واننا امام هذا « القدر » الذي « حل على هذه الارض » لا حول لنا ولا قوة ..

ينسى هيكل ان هذه الوقائع تنقسم الى مجموعتين :

المجموعة الاولى : تشمل علاقات البلدان الراسمالية مع البلدان الاشتراكية وبشكل خاص علاقات امريكا واليابان والمانيا الغربية مع الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية والمانيا الديمقراطية ، كما تشمل الحل المقترح لقضية فيتنام .

المجموعة الثانية : تشمل العلاقات فيما بين البلدان الراسمالية ، وبشكل خاص دخول بريطانيا الى السوق الاوروبية المشتركة .

بالنسبة للمجموعة الاولى لا يتذكر هيكل طبعا .. ان البلدان الاشتراكية لم تكن هي التي قطعت علاقاتها بالعالم الراسمالي وفرضت على نفسها الحصار الدولي ، ليصورها الان وكانها متراجعة عن خطوطها السياسية الستراتيجية . بل على العكس كان الحصار المفروض على البلدان الاشتراكية نتيجة تصور الامبرياليين انهم قادرون على خنق النظام الاشتراكي ، فالامبرياليون هم الذين فرضوا الحصار الذي لم يعودوا الان قادرين على الاستمرار فيه امام نمو المنظومة الاشتراكية وصرورتها حقيقة دولية صاعده ومتقدمة . واذا كان هناك من تراجع في قيام علاقات بين المعسكرين فهو تراجع المعسكر الامبريالي عن تصوراته السابقة حول قدرته على سحق المنظومة الاشتراكية ..

وهذا المثال الذي يتساءل عنه هيكل بالتالي وبدعونا لقياسه على صراعنا هو مثال مقلوب تماما .. فاذا كان نضال شعوب البلدان الاشتراكية هو الذي ادى الى تراجع الدول الاستعمارية وفكها لحصارها المضروب ، يعني ذلك ان المزيد من نضال حركة التحرر الوطني لدحر العدو ، لا للاعتراف به والاستسلام لمشيئته ، هو المطلوب منا .

ولعل المثل الفيتنامي الذي يقلبه هيكل راسا على عقب هو خير ما يوضح هذه الحقيقة ، فليس الحل الفيتنامي المقترح هو نتيجة « التعاون » بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، بل على العكس هو شكل من الاشكال التي تعبر بها الولايات المتحدة عن هزيمتها الشنعاء امام نضال الشعب الفيتنامي البطل بمساعدة الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية والاسرة الاشتراكية كلها .

اما بالنسبة لتساؤلات هيكل عن المجموعة الثانية من الوقائع الدولية ، التي يمكن تلخيصها بنزوع البلدان الراسمالية نحو التعاون فيما بينها ، فان هيكل يأتي الموضوع من فوق وكانه موضوع مفاجيء ، متناسيا الظروف التي تدفع الى ولادة هذه الصيغة :

ان التناحر بين البلدان الراسمالية قد ولد في مرحلة صعودها نحو الوصول الى المرحلة الامبريالية ، اي نحو اقتسام واعادة اقتسام السوق العالمية .. لكن اليوم ، وامام نهوض الشعوب المستعمرة (بالفتح) والمعسكر الاشتراكي والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، اخذت البلدان الامبريالية تتراجع مجبرة ، فتواجه الخانق من الازمات (بريطانيا خير مثال على ذلك) .. وهذا الاختناق في الازمات ووعي الامبرياليين الى ان الخطر عليهم كلهم هو خطر مشترك ، هو السبب الذي يدعوهم الان الى تغليب التعاون على التناحر املا في اطالة عمر نظامهم الى اقصى حد ممكن .

واين صراعنا المصيري من ذلك الصراع وما هو وجه الشبه في عداء حركة التحرر الوطني العربية للامبريالية والصهيونية والرجعية مع هذا التناحر بين القوى الامبريالية الذي انقلب تحت ضربات نضال الشعوب الى تعاون ، حتى يوحي لنا هيكل بحتمية استبدال صراعنا مع العدو بتعاون معه واستسلام لعدوانه وخضوع لمشيئته ومخططاته !

●●●

ان تساؤلات هيكل هذه التي يريدنا ان نقيس صراعنا مع عدونا عليها .. ليست اطلاقا الا كمن « يقيس البيض على الباذنجان » كما يقول المثل الشعبي المعروف .

والحقيقة ان هيكل يريد من « قياس البيض على الباذنجان » ان يساهم في التهيئة للمبادرة الاميركية الجديدة التي تتلخص بدمج مشروع حسين بمشروع حكومة المنفى ، وبالمبادرة الجزئية لفتح قناة السويس ، ضمن اطار من المفاوضات مع العدو بهذا الشكل او ذاك . وهو تسهيلا لهذه المبادرة يوحي بحتمية المفاوضات ، ويحاول استرضاء المقاومة بالمديح الكلامي وبدعوتها الى « انسحاب طويل كما فعل ماوتسي تونغ في الزحف الطويل الى ينان » دون ان يقول اين هي ينان العربية ، هل هي حكومة المنفى ام اقليم فلسطين في الضفة الغربية ام اين يا ترى ؟ وهو ايضا لخدمة المبادرة يسقط الاتحاد الثلاثي ويهدد سوريا ضمنا بمعركة سياسية في حال استمرارها « برفض » المبادرات ..

والجدير بالذكر ان الملامح التي يهيء لها هيكل في مقاله تتطابق حتى في التفاصيل مع المشروع الذي تحدث عنه ميشال ابو جودة الذي يكتب من القاهرة حاليا في صحيفة « النهار » البيروتية قبل يوم واحد من مقال هيكل .. وكذلك مع روائح النفط التي تفوح من كواليس مؤتمر وزراء الخارجية والدفاع العرب في الكويت ■■

« نزار سمعان »